تجليات الخطاب الديني
في شعر أبي إسحاق الالبيري الأندلسي (ت٤٦٠هـ)

م. د. محمد عبيد السبهاني
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة الانبار

بسم الله الرحمن الرحيم

يعدّ الخطاب الديني شكلاً من أشكال الاتصال بين المتكلم والمتلقي، وهو بهذا المعنى رسالة تندرج في العالم الثقافي الذي ينتمي إليه المرسل، وتحمل هذه الرسالة القيم الجملية والدينية معاً لتشكل تركيبة عالم ثقافي معين.

ومن هنا تأتي أهمية الدراسة في البحث عن تجليات الخطاب الديني في شعر الالبيري، بوصفه خطاباً يحمل مضموناً دينياً وسياسياً واجتماعياً، ليس منبثقا من عدم بل هو نتاج عدة تفاعلات نفسية واجتماعية وثقافية من جهة، وتشكيل رؤية جديدة وطرح بناء يأخذ على عاتقه تبني الكثير من الأفكار الهادفة والتأثير في المتلقي من جهة أخرى.

أما منهاج الدراسة فقد اتكأ على ثلاث جوانب : أولها بواعث الخطاب الديني وثانيها: أسس الخطاب الديني وثالثها: بلاغة الخطاب الديني .

توطئة:

إنَّ عملية الإبداع الشعري لا تتأتَّى من الفراغ، وإنَّما هي عمليةٌ تراكمية لتجارب الشاعر المختزنة في ذاكرته الوقَّادة بطريقة لا واعية ليتشكل منها رصيده الثقافي لتطفو على سطح المخيلة والذاكرة من خلال العقل الباطن الذي يختزن مشاهدات الشاعر وتجاربه السابقة التي تُعدُّ حافزاً ثرّاً لإثراء نصوصه الشعرية.

ولعل نشأة الشعراء بعد الإسلام في ظلال العلم ينهلون من منابعه الصافية، ولاسيما العلوم الشرعية(القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والسيرة) .مما حدا بهذه العلوم وهذه

الثقافات أن تكون الخلفية التي يرسم عليها الشعراء صورهم، والإطار الذي يؤطِّرونها به، وانطلق الشعراء من هذا الأساس على الخطاب بعدِّه ((كياناً أفرزته علاقات معينة بموجبها التأمت أجزاؤه))[1]. وبذلك يغدو الخِطَاب السمة المشخِصَة لكل نص . والخطاب الديني واحد من أنواع الخطاب الذي يلعب دوراً رئيسياً في العملية الايصالية، ويتناول هذا النوع من الخطاب تقديم النصح والإرشاد والحكمة والموعظة وله بواعث وأسس تكون منطلقا في تأصيل هذا الخطاب يمكن تبيانها في شعر أبي إسحاق الالبيري كما سيأتي في مفردات هذا البحث وعنواناته .

بواعث الخطاب الديني :

في غمرة تعاظم التفكك السياسي والصراع على السلطة والانقسامات الفادحة والنزاعات الشرسة التي عمّت البلاد، ولد الخطاب الديني ردة فعل وثورة على ما يجري في الساحة الأندلسية، فكان انبثاق هذا الخطاب تلبية وتناميا مع مطامح ومنطلقات المجتمع الأندلسي الذي عانى كثيرا من دوامة العنف المستمر المتمثل بنزوات الحكام وتسلطهم وضياعهم بين هذه وتلك .

فكان لابد أن تكون هناك صرخات مدوية تأجج هذا الخطاب يحمل لواءه أصحاب العقل والدين، تنطلق أفواههم بالحق تجاه ما تفعله هذه القيادات التي كثيرا ما تناست تاريخها الخالد وأصبحت في مهب الريح تشرق وتغرب .

وفي غمرة هذا الصراع عبّر الشاعر الأندلسي عن الألم والسخط لواقع مجتمعه الذي استلبت حريته وأصبح مثارا للحزن والشكوى، وفي الوقت ذاته صور الشاعر عبر هذا الخطاب واقعه السياسي المؤلم بما يعكس تصوراته للتغيير، فاكتسب الخطاب الديني آنذاك سمة الاحتجاج والرفض والاستصراخ المدوي لمساندة المظلومين.

ولعل من بين تلك البواعث الرئيسية التي أسهمت في ولادة الخطاب الديني لدى شاعرنا هي:

سقوط المدن:

إنّ الظروف السياسية التي ألمّت بالأندلس مذ سقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دويلات في أوائل القرن الخامس الهجري، أدّت إلى حالة من التوجع والأسى فكان سقوط المدن ابرز بواعث الخطاب الديني ((وليس بدعا . بعدها . أن يرثي الشاعر مدينته ويبكيها حار البكاء، فالرثاء في العادة يكون من القلب لموت عزيز أو حبيب، وكذلكم كانت الأوضاع في المدن ... حيث تقلب الشاعر في نعيمها، واستحفظها ذكرياته العبقة فإذا بها . بين عشية وضحاها . تمسي مقصومة الظهر، مهيضة الجناح، يفتك بها العدو، ويشعل بها نار الدمار، ويسقيها كأسا من الموت الزؤام، والحقد الأسود))[٢]

وقد تردّت الأوضاع وعمّت الفوضى وكثر تهاوي المدن الواحدة تلو الآخرة ولا من مجيب، فحز في نفس الشاعر الأندلسي وهو يرى ضياع وطنه الذي طالما تغنى به وبجماله فاحرق ذلك كبده وتقطع قلبه ففاضت العيون بكاء ولوعة على مجد ضائع وعزٍ زائل.

وبفعل تلك البواعث قيلت القصائد الباكية الشجية في رثائها وبرزت المشاعر الوطنية القائمة على البواعث الدينية قوامها الدعوة إلى استرجاع تلك المدن والوقوف في وجه التوسع الأجنبي فنما الخطاب الديني في أحظان الكوارث والمحن[٣].

ومن بين تلك المدن التي سقطت مدينة البيرة وكانت ((من أعظم كور الأندلس ... وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الرّوم، سنام الأندلس، وتدعى في القديم بقسطيليّة، وكان لها من الشهرة والعمارة، ولأهلها من الثروة والُدة، وبها من الفقهاء والعلماء، ما هو مشهور))[٤].

ولكن سرعان ما تغير الحال في تلك البقاع وأصبحت ((الأيام تُخيف ساكنها، والعَفاء يتبوّأ مساكنها، والفِتن الإسلامية تَجُوس أماكنها، حتى شملها الخراب، وتقسَّم قاطِنَوها الاغتِرابُ، وكلُّ الذي فوق التُّراب تُراب، وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربرية سنة أربعمائة من الهجرة،فما بعدها، ولجأوا إلى مدينة غرناطة))[٥].

ويأخذ الخطاب الديني لدى أبي إسحاق الالبيري منحى عرض الأحداث ونقل الواقع المؤلم وتصوير المأساة وإبراز الفاجعة إذ يقول:

يُضيّـــعُ مفـــروضٌ ويُغفـــلُ واجِـــبُ وإنـــّي علـــى أهـــلِ الزَّمـــانِ لَعـــاتِبُ
أتنـــدُبُ أطـــلالُ الـــبلادِ ولا يُـــرَى لإلبيـــرةٍ مِـــنُهم علـــى الأرض نـــادِبُ[٦]

ففي البيتين نجد عمق التجربة وشدة المعاناة التي تهز وجدان الشاعر فيعكس لنا من خلالها صدى ذلك المصاب الجلل، فأرسلها صرخة مدوية فيها من العتاب والشكوى الشيء الكثير، ويعتب شاعرنا على أولي الأمر وأصحاب الشأن الذين تناسوا تلك الفاجعة، وبلغة الحزن يأسف الشاعر لتلك الفاجعة وتلك النهاية التي ألمّت بمدينة البيرة، وبعدها يصبح الحنين إلى الماضي التليد ما يلملم تلك الجراح فيقول:

علـــى أنَّهـــا شـــمسُ الـــبلادِ وأُنسُهـــا وكـــلُّ سِواهـــا وَحشـــةٌ وغَيـــاهِبُ
وكـــم مـــن مُجيـــبٍ كـــانَ فيهـــا لصـــارخٍ تُجـابُ إلـى جَـدوى يديـهِ السَّبـاسبُ
وكـــم مـــن نجيـــب أنجبتـــهُ وَعالِـــمٍ بأَبوابِهـــم كـــانت تُنـــاخُ الرَّكائـــبُ
وكم بلغت فيها الأماني وقُضِّيتْ لِصَبٍّ لُبانـاتٌ بهـا ومَآربُ
وكم طَلعت منها الشُّموس وكم مشتْ على الأرضِ أقمارٌ بها وكواكِبُ
وكم فَرستْ فيها الظُّباء ضَراغِماً وكـم صَرعتْ فيها الكُماةَ كواعِبُ[٧]

فيسهب الالبيري في وصف المدينة قبل أن يحل بها الدمار والخراب ويحلق في الإشادة بها يستمد تلك المعاني والصرخات المدوية من عواطفه الجياشة التي تبرز من خلال نوازعه الدينية والوطنية، ثم يسترسل بعد هذه الأوصاف والذكريات العبقة بأبيات مؤثرة يحاول من خلالها أن يملك القلوب قبل العقول فيشحن المتلقي بمزيد من العواطف الجياشة بقوله:

غَـدتْ بعـد ربَّـات الحِجـالِ قُصـورُها يَبابـــاً تُغاديهـــا الصَّـــبا والجَنائِـــبُ
فآه أُلوفاً تقتضي عدد الحصَا على عهدِها ما عاهَدتها السَّحائبُ
عَجِبتُ لِما أدرِي بها من عَجِيبَةٍ فياليتَ شِعري أين تلك العَجائبُ؟[٨]

فأهات الحنين والحسرة واضحة على المدينة تتوهج من خلال الكلمات الشجية، بل ويأخذه العجب عن ذلك العز والشموخ الذي كان بالأمس حاضراً وعن تلك البقاع التي كانت بالأمس عامرة زاخرة واليوم بالية فانية، وبعد هذا الخطاب الذي أعاد إلى الأذهان صورة المدينة يقول:

وقد بَقِيتْ في الأرضِ منهم بقيةٌ ... كأنَّهم فيها نجومٌ ثواقِبُ
فَلِلّهِ ثاوِيهِمْ ولله حَيّهُمْ ... فَكُلُّ جَوادٌ باهِرُ الفَضلِ واهِبُ
لساءَلتُ عنهُم رسمَها فأَجابَني ... ((ألا كُلَّ شيءٍ ما خَلا اللهَ ذاهِبُ))
يُخاطِبُنا: أن قد أُخِذْتُ بذنبكُمْ ... وما أَحدٌ منكُم عن الذَّنبِ تائبُ
وأَن قَستْ أكبادُكُم وقُلوبُكُمْ ... وما مِنكمُ داعٍ إلى الله راغِبُ
لشَكلكمُ أولى وأجدر بالبُكا ... على مِثلهِ حَقاً تقومُ النّوادِبُ[٩]

فالخطاب الديني هو المهيمن على النص الشعري وكفيل بان يهز مشاعر القاصي والداني أسفاً وحسرة، ويعزو سبب تلك المأساة إلى اتجاه الناس إلى عبادة العباد وترك رب العباد، والى تغيَّر أخلاق الناس وقسوة قلوبهم وارتكاب الذنوب والبعد كل البعد عن المنهج الإسلامي .

وهكذا يبكي شاعرنا مدينته الغراء ويتقطع قلبه ألماً وحسرة، كيف لا وكانت تشرق في سمائها شمس الهداية فتغيَّر حالها وخيّمت فيها ظلمة الضلال بعد سقوطها بأيدي الأعداء.

وأبيات الالبيري السابقة الذكر بشكلٍ عام تغلب عليها سمة الخطاب الديني المحاط بنبرة الحزن على الماضي التليد والعز المجيد فيضرب على أوتاره علّه يحرك تلك القلوب الميتة، فضلاً عن مضامين الوعظ والاعتبار التي يجد فيها متنفسا للخروج من تلك الفاجعة.

الدعوة إلى الجهاد:

يمثل الخطاب الديني شكلاً من أشكال الخطاب الذي ((يحمل رسالة افهامية القصد منها التأثير وتحديد رؤية معينة يحددها الباث ويتطلب تطبيقها من قبل الجماعة))[١٠]، ويحاول المرسل لهذا الخطاب تشكيل رؤية جديدة وطرح بناء يأخذ على عاتقه تبني الكثير من الأفكار ومحاولة الضغط والتأثير على المتلقي.

وكانت الدعوة إلى الجهاد من بواعث الخطاب الديني في الأندلس بشكلٍ عام ولدى شاعرنا بشكلٍ خاص، قوام ذلك الخطاب بيان القران الكريم لفضل الجهاد كما في قوله تعالى:((لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا))[١١] وبدعوة رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ((انتدبَ الله لِمن خرجَ في سبيله لا يُخرجُهُ إلاّ إيمانٌ بي وتصديقٌ بِرُسُلي، أن أُرجِعهُ بما نال من اجرٍ أو غنيمة، أو ادخلهُ الجنَّة،ولولا أن أشُقَّ على أُمتي ما قعدتُ خلف سريةٍ، ولوددت أنَّي أُقتل في سبيل الله ثم أُحيا، ثم أُقتل ثم أُحيا، ثم أُقتلُ))[١٢]. ومن هذا الخطاب الديني ترسخت فكرة الجهاد وغرست في نفوس أبنائها، فضلا عن ذلك فإنَّ العوامل السياسية التي ألمّت بالبلاد في عصر الطوائف كانت المعين لتأجيج الخطاب الديني، ولم يكن هذا الخطاب إلاّ بمثابة ((تعبير عن هذا الحماس الديني العميق الذي كان يكمن في صدورهم نحو الجهاد))[١٣].

ولم تكن الدعوة إلى الجهاد بعيدة عن شاعرنا الزاهد بعد أن عمّت الاضطرابات السياسية البلاد وهيمنة اليهود على مقاليد الحكم ولاسيما في مملكة غرناطة في عهد دولة بني زيري البربرية الأصل حتى انتهى المطاف بخلافة باديس بن حبوس[١٤].

وكان هذا الأخير طاغية من طغاة البربر الذين عرفتهم بلاد الأندلس بل ومن أشدهم دهاء وقسوة وإقداماً ومن أكثرهم ظفراً في الحروب[١٥].

وشكّل الخطاب الديني لدى الالبيري موجة العصيان والتمرد ضد الطغاة ومن لفَّ لفّهم، فأخذ يخاطب أهل صنهاجة ويشحذ الهمم ضد الوزير ابن النغريلة اليهودي قائلا:

ألا قُـــــلْ لِصـــــنهاجَةٍ أجمعِـــــين بُـــــدُورِ النَّـــــديِّ وأُســـــدِ العَـــــرِينْ
لقـــــد زلَّ سيّـــــدُكم زلّـــــةً تَقـــــرُّ بـــــها أعيُـــــنُ الشَّـــــامِتينْ
تَخـــــيَّر كـــــاتبهُ كافـــــراً ولـــــو شـــــاءَ كـــــان مـــــن المُســـــلِمينْ
فعـــــزَّ اليَـــــهودُ بـــــهِ وانتَخـــــوا وتـــــاهوا وكـــــانُوا مـــــن الأرذَلـــــينْ[١٦]

إذ يستهل هذه القصيدة بخطاب ديني أشبه ما يكون بثورة عارمة ضد النفوذ اليهودي والمطالبة بالقضاء عليه ومحاولة استثارة أهل صنهاجة وحثهم على الأخذ بالثأر من باديس بن حبوس لاختياره السيئ للكاتب اليهودي.

ويحاول شاعرنا أن يستميل قلب باديس بن حبوس وينبهه على الغفلة التي وقع فيها، قائلا:

أبـــادِيسٌ أنـــت آمـــرؤٌ حـــاذِقٌ تُصِـــيبُ بِظَـــنِّك نفـــسَ اليَقـــينْ
فكـــيف اختفـــتْ عنـــكَ أَعيـــانُهُم وفـــي الأرضِ تُضـــربُ منهـــا القُـــرونْ
وكيـــفَ تُحِـــبُّ فِـــراخَ الزِّنـــا وهـــم بغَّضُـــوكَ إلـــى العالَمِـــينْ
وكـــيفَ يَـــتِمُّ لـــكَ الـــمُرتقى إذا كُنـــتَ تَبـــني وهـــم يَهـــدِمُونْ
وكـــيف اســـتنمتَ إلـــى فـــاسقٍ وقـــارَنتهُ وهـــو بـــيسَ القـــرِينْ[١٧]

إذ يحاول الشاعر من خلال هذا الخطاب الديني إيصال رسالة افهامية إلى باديس بن حبوس من جهة والى عامة الناس من جهة أخرى؛ بأنه كيف آلت الأمور إلى تخير الملك لكاتب يهودي عُرف عداؤه للأمة الإسلامية جمعاء .

ثم يسترسل خطابه بأبيات أخرى يحثُّ فيها على الجهاد بشكلٍ صريح وقتال اليهود من خلال إظهار مفاسدهم وطغيانهم قائلاً:

فقد ضجَّتِ الأرضُ من فِسقِهِمْ وكادت تميدُ بنا أجمعينْ
وإنِّي احتَللتُ بِغرناطَةٍ فكنتُ أراهُمْ بها عابثِينْ
وقد قسَّمُوها وأعمالها فمنهم بِكُلِّ مكانٍ لعينْ
وهم يَقبِضون جِباياتِها وهم يَخضِمونَ وهم يَقضِمُونْ
وهم يلبسون رفيع الكسا وانتم لأوضعها لابسون[١٨]

ثم تأتي الصرخة المدوّية في الدعوة إلى الجهاد ومقاتلة اليهود بلغة الخطاب المباشر تلك الصرخات التي أثارت غضب الناس إذ يقول :

فبادرْ إلى ذبحهِ قُربةٍ وضَحِّ به فهوَ كبشٌ سمينْ
ولا تَرفعِ الضَّغطَ عن رهطهِ فقد كنزوا كل علق ثمينْ
وفرِّق عداهُم وَخذ مالهمْ فأنتَ أحقُّ بما يجمعُونْ
ولا تحسبن قتلهم غدرةً بل الغدرِ في تركهِم يعبثُونْ[١٩]

فبعد تقديم الصورة اليائسة للمدينة وما انتابها من خراب ودمار وجه شاعرنا دعوته الصريحة إلى مجاهدة الطغاة من اليهود، ويبدو أنّ الشاعر نجح في خطابه الديني من استمالة قلوب أهل صنهاجة فدارت الدائرة على هذا الوزير وجماعته حتى وصف ابن بسام تلك الثورة بأنّها((ملحمة من ملاحم بني إسرائيل، باؤا بذلها، وطال عهدهم بمثلها))[٢٠].

وتبقى لهذه القصيدة الريادة في انطلاق الثورة ضد اليهود ومن لفّ لفهم، لما احتوته من قوة الخطاب الديني الذي تجسد بمشاعر إسلامية تهز الوجدان وتخاطب الضمائر وتبكي المقصّرين ألما وحسرة على ما فرّطوا به، وإمكانية الشاعر من استمالة القلوب بفضل التذكير والتنبيه من ضياع للدين وانعدام للقيم الإسلامية في خضم تلاطم أمواج الكفر والطغيان وأحداث صرخة مدوية قضت على حكم بأكمله.

مظاهر الآخرة ونذيرها (الموت، الشيب، المعاد).

إنّ الخطاب الديني في نزعته العامة يرفع لواء الدعوة إلى الفضائل الإسلامية والتذكير بالورع والتقوى والموت والمعاد كونها تمثل نقطة انطلاقه.

ومن هذا المنطلق يكون من الطبيعي أن يربط الشاعر الزاهد بين الحياة والموت، فتلك نتيجة منطقية، كما هي نتيجة طبيعية لربط الواعي وغير الواعي بين الموت والحياة.

ويصدر شعر الزهد عن أمرٍ مسلم به ألا وهو ان الدنيا فسحة من الزمن لا تلبث أن تنتهي بالموت، وان ما بعده هو الأعظم حيث تجد الحياة اللانهائية.

وقد نظر شاعرنا إلى الموت نظرة شكلت باعثا من بواعث الخطاب الديني، فطالما وقف عند الموت وقفة معتبر واستشف منه الحكمة وجعل منه الطريق إلى الآخرة، فكان كثيرا ما يرد في خطابه الديني ليجعل منه أداة لزجر النفس عن الهوى والترفع عن سفاسف الدنيا وبهرجها، إذ يقول في بعض أشعاره:

تُغـــازِلُني المنيَّـــةُ مـــن قريـــبٍ وتَلحظُنـــي مُلاحظـــةَ الرَّقيـــبِ
وتنشـــرُ لـــي كِتابـــاً فيـــهِ طَيِّـــي بخَـــطِّ الـــدَّهرِ اشـــطرُه مَشـــيبي
هـــي الأقـــدارُ والآجـــالُ تـــأتي فَتنـــزِلُ بالُمطبَّـــبِ والطَّبيـــبِ[٢١]

في هذه الأبيات نجد الالبيري قد وضع الموت أمامه، وجعل من المنية رقيباً عليه ويزاوج بين المنية والمشيب باعتبار المشيب نذيراً لدنو الآجل، لكن في الوقت ذاته يؤمن بالقدر والأجل بأنه لا محال نازل بالمطبب والطبيب بالصغير والكبير، فكان الشيب والموت رافداً وباعثاً من بواعث الخطاب الديني .

بل؛ ويجعل من تقدّم العمر نذيراً إلى اليقظة وعدم النوم فحادي الأرواح قريب منه بعد بلوغه الستين، إذ يقول:

أفـــي الســـتَّين أهجـــعُ فـــي مَقِيلـــي وحـــادي المـــوتِ يُـــوقِظُ للـــرَّواحِ[٢٢]

ويقول أيضا في المعنى ذاته في موضع آخر:

قـد بلغـتَ السَّـتينَ ويحـكَ فـاعلَمْ أنَّ مـــا بَعدهـــا عليـــكَ تَلـــوَّمْ

أنـتَ مثـلُ السَّـجِلِّ يُنشَـرُ حِينـاً ثـمَّ يُطـوي مـن بعـدِ ذاكَ ويُختـمْ[٢٣]

ويطالعنا الالبيري بخطاب ديني قل ما نجد مثله في الوعظ والتذكير لاقتراب المنية، إذ يقول:

كيـــفَ يلتـــذُّ بالحيـــاةِ لـــبيبٌ فوَّقـــتْ نحـــوهُ المنيَّـــةُ أســـهمْ

مـــا لِغُصـــني ذَوى وكـــانَ نضـــيراً ولِظَهـــري انحنـــى وكـــان مُقـــوَّمْ

نحـــنُ فـــي منـــزلِ الفنـــاءِ ولـــكن هـــو بـــابٌ إلـــى البقـــاءِ وسُـــلَّمْ

ورحـــى المـــوتِ تســـتديرُ عَلينـــا أبـــداً تَطحـــنُ الجميـــعَ وتَهشِـــمْ[٢٤]

فهو يعجب كيف يلتذ بالحياة من رأى أنَّ المنية قد صوّبت أنظارها إليه وانحنى ظهره وذوى غصنه فما بعد كل هذا إلاّ الفناء برحى الموت التي تظهرها هذه العلامات .

وأخيرا يجعل القبر واعظا لنا فيذكر به، كونه أول منزلة من منازل الآخرة، إذ يقول:

مـــا أوعـــظَ القبـــرَ لـــو قَبِلنـــا موعِظـــةَ النَّـــاطق الصَّـــمُوتْ

يُـــوحِي إلـــى مُمتَطِـــي الحَشـــايا مالـــكَ مـــن مَضـــجَعي عَمِيـــتْ[٢٥]

وأما الشيب فكان هو الآخر يمثل باعثاً من بواعث الخطاب الديني، لما يصحبه من أحاسيس ومشاعر تنبئ بدنو الآجل، وذهاب ريعان الشباب والقوة، فهو إيذانٌ بمرحلة الضعف والتفكر والتأمل وغلبة النزعة الروحية بدل المادية[٢٦]

ونرى الالبيري يجعل من الشيب ناهياً وزاجراً للهو والمتاع لكن دون جدوى لإصرار العبد على المعاصي إذ يقول:

ونـــاداكَ الكتـــابُ فلـــم تجبـــهُ ونهنَهـــكَ المشـــيبُ فمـــا انتَبهتـــا[٢٧]

ويجعل الالبيري من الشيب بداية النهاية التي انتهى معها ريعان الشباب، إذ يقول:

أرى الأعصـــارَ تعِصـــرُ مـــاءَ عُـــودي وقِدمـــاً كنـــتُ ريَّـــانَ القَضـــيبِ
أدالَ الشَّـــيبُ يـــا صـــاحِ شـــبابي فَعُوِّضـــتُ البغـــيضَ مـــن الحبيـــبِ[٢٨]

ويدرك الالبيري بان الشيب قد طواه واسلبه الوشاح إذ يقول :

وقـــد نشـــرَ الزَّمـــانُ لِـــواءَ شَـــيبي ليطـــوِيني ويَســـلُبني وِشَـــاحِي[٢٩]

ويجعل قبح الشيخ عندما يلهو وهو في شيبه فيزجره قائلا:

اشَّـــيبُ نبـــه ذا النهـــى فتنبهـــا ونهـى الجهـول فمـا اسـتفاق ولا انتهـى
فـــإلى متـــى ألهـــو وافـــرح بـــالمنى والشـيخ أقبـح مـا يكـون إذا لهـا[٣٠]

ففي البيتين يذكر الشيب بقصد الزجر والترويع والتذكير بالموت ويرى إنَّ الانسياق وراء الشهوات والانهماك في الملذات من صور الغفلة وتناسي كؤوس الموت ولاسيما بعد ظهور الشيب .

ويعتب شاعرنا على الدهر الذي أدال شرخ الشباب بقدوم الشيب، إذ يقول :

ولِـــدهري أدالَ شـــرخَ شـــبابي بمشـــيبٍ عِنـــد الحِســـان مُـــذمّم[٣١]

ولم يكتفِ شاعرنا بعتاب الدهر بل راح يعنّف نفسه على ما ارتكبته من المعاصي، فزوال الصبا وبزوغ الشيب عقابها الدنيوي، وما بعد ذلك إلاّ البلى وسكنى القبور فتلقى هول الحساب، إذ يقول:

وأبغضـــــتُ نفســـــي لعِصيـــــانِها وعاتبتُهـــــا بـــــأشدِّ العِـــــتابِ
وقلـــتُ لهـــا بـــانَ عنـــكِ الصِّـــبا وجـــرِّدكِ الشَّـــيبُ ثـــوبَ الشَّـــبابِ
ومـــــا بعـــــد ذلـــــكَ إلاَّ البِـــــلى وسُـكنَى القُبُـورِ وهَـولُ الحِسـابِ[٣٢]

وأخيرا يرى الالبيري في الشيب محطة الرحيل إلى الآخرة، إذ يقول :

بَصُـــرتُ بِشـــيبةٍ وخَطَـــتْ نَصِـــلي فقـــلتُ لـــهُ تـــأهَّبْ للـــرَّحيلِ
ولا يهُـــنِ القليـــلُ عليـــكَ مِنهـــا فمـا فـي الشَّـيبِ ويحـكَ مـن قليـلِ
ولا تَحقِـــر بنـــذرِ الشَّـــيبِ واعلـــمْ بـــأنَّ القَطـــرَ يَبعـــثُ بـــالسُّيولِ[٣٣]

لقد رأى الالبيري بان الشيب نهاية المطاف وإيذانٌ بمغيب شمس الشباب، فما من جدوى إلاّ بندب النفس وتذكيرها المعاد وتوديع الحياة.

أما المعاد فيشكل باعثاً أخر من بواعث الخطاب الديني، فالشاعر الزاهد يرى أنّ الموت والحياة سواء، ما دامت بداية الوجود إيذاناً بنهايته وما دام الوليد يحمل معه بذور فنائه فلا بد أن تكون النفس إلى ذكر المعاد تواقة والى رحيلها مشتاقة، وهذا طريق الزهاد لذلك نجد الالبيري يلهج بهذا الخطاب ليذكّر به نفسه أولاً ومن ثم بقية الناس، فيقول:

كـأنّي بِنَفسـي وهـي فـي السَّـكراتِ تُعالِـــجُ أن تَرقـــى إلـــى الَّلـــهَواتِ
وقـــد زُمَّ رحْلـــي واســـتَقلَّتْ ركائبـــي وقـــد آذَنتنـــي بالـــرَّحيلِ حُـــداتي
إلـــى مَنـــزلٍ فيـــه عـــذابٌ ورَحمـــةٌ وكـم فيـهِ مـن زجـرٍ لنـا وَعِـظاتِ[٣٤]

ومفتاح هذه الأبيات هو (الموت) الذي انبثقت دلالته من جملة كلمات أراد الشاعر من خلالها أنْ يندب نفسه أولاً ويذكرها المعاد ثانياً وأنْ تكون رسالة موجهة إلى المجتمع الأندلسي ثالثاً، فنجد (السكرات، اللهوات، الرحال، الرحيل، عذاب، رحمة، زجر، عظات) كلَّها ألفاظ توحي بعمق الدلالة الدينية في نفس الشاعر والحرص على التذكير بأنَّ الدنيا زائلة وأنَّ الآخرة هي دار القرار، وجاء دور الشاعر المبدع في نظم هذه الألفاظ وتسلسلها على وفق ترتيب الحدث فبدأ بسكرة الموت والرحيل عن الدنيا إلى منزل الآخرة إنّها حياة البرزخ، إمّا عذاب وإمّا رحمة.

إنّه ينهض من تلك الألفاظ والمعاني إلى خطاب ديني، يتداخل فيه الموت وجراح تلك الأمة التي أصبحت تقطر دماً جراء حكامها الذين طغوا وافسدوا معالم تلك الحضارة العريقة.

ومن خطاب النفس وتذكيرها المعاد إلى خطاب تذكير الابن بالمعاد، إذ يقول:

تَـــفِرَّ مـــن الهـــجيرِ وتتَّقيـــهِ فهـــلاَّ عـــن جهـــنَّمَ قـــد فَررتَـــا؟
ولســـتَ تُطيـــقُ أهونَهـــا عـــذاباً ولـــو كنـــتَ الحديـــدَ بهـــا لـــذُبتَا[٣٥]

فنجد الشاعر يُذَّكِر ابنه بأهوال جهنم وعذاب الآخرة ويبين شدة الموقف بأنها نزاعة للشوى، فإذا كنت من هجير الدنيا تفر فكيف بهجير الآخرة مما لا شك انه اشد عذابا .

إنَّ الزهد في حقيقته دعوة لترك ملذات الحياة الدنيا ومتاعها والإيمان المطلق بزوال الدنيا مما يدفع بالزاهد إلى تركها واللجوء إلى الله فهو حسبه، يقول الالبيري:

ومـــن مَلِـــكٍ كـــان السُّـــرورُ مِهـــادَهُ مـــع الآنســـاتِ الـــخُرَّدِ الخَفِـــراتِ
غـداً لا يـذودُ الـذُّودَ عـن حُـرِّ وَجهِـهِ وكـــان يـــذودُ الأُســـدَ فـــي الأجمـــاتِ
وصـار بـبطنِ الأرض يَلتحِـفُ الثَّـرى وكـــان يجـــرُّ الوشـــيَ والحَبَـــراتِ
ومَّمـا شَـجاني . والشُّـجونُ كَثِيرةٌ . ذُنـــوبٌ عِظـــامٌ أســـبَلت عَبَراتِـــي
وأقـــلقني أنَّـــي أمـــوت مُفـــرِّطاً علـــى أنّـــي خلَّـــفتُ بعـــدُ لـــدِاتِي[٣٦]

ويؤمن الالبيري بقضية الموت إيماناً مطلقاً لذلك يطلب الدعاء له، لعل الله يرحمه، إذ يقول:

ومـــا يعـــرِفُ الإنســـانُ أيـــن وفاتُـــهَ أفـــي البـــرِّ أم فـــي البحـــرِ أم بِفـــلاةِ
فيـــا إخـــوتي مهمـــا شَـــهِدتُم جَنـــازتِي فقُومـــوا لـــرِبّي واســـألوهُ نجـــاتي
وجـدُّوا ابتِهـالاً فـي الـدُّعاءِ واخلِصُـوا لعـــلَّ الـــهي يقـــبلُ الـــدَّعواتِ[٣٧]

لقد رأى الالبيري أن الموت نهاية المطاف الحتمية تلك القضية التي امن بها إيماناً مطلقاً فشكلت باعثاً أساسياً في تجلي الخطاب الديني لديه.

أسس الخطاب الديني:

يعدّ الإسلام في فكره وواقعه وتشريعاته رافداً من أعظم الروافد التي ألهمت ثقافة الشاعر، فكلّما برزت هذه الثقافة في النص الشعري جعلت منه على درجة عالية من الفاعلية التي يمتاز بها كنص شعري عن غيره من النصوص.

وإذا ما حضرت هذه الثقافة فإنها تعضّد النص الشعري وتجعل الخطاب مفهوماً والاتصال بالمتلقي مضموناً، فضلاً عن ذلك فإنها تعطي بُعداً معرفياً لثقافة الشاعر التي تنأى به عن الركاكة.

وهذه الثقافة لابد أن يكون لها أُسس ينطلق منها هذا الخطاب وهذا الأساس ينطلق أيضاً من البيئة التي تحتضن الشاعر التي دائماً ما يكون لها وقعٌ شديد على الأدب لأنه من الطبيعي((أن يكون التدين والعناية بشعائر الدين وأصوله وأهله عامة واضحا في بلد شغل بالحروب_ كالأندلس . واتقدت فيه على وجه من الوجوه روح الجهاد والمرابطة والمحاجة))[٣٨].

لذلك كان انطلاق الخطاب الديني في شعر الالبيري قد انبجس من عينّ واحدة وتفرعت منها تلك الثقافة التي استمدها من القران الكريم والسنة النبوية فضلاً عن القيم الخلقية، فجسدت هذه الأسس الركن الركين في خطابه الديني وانعكس هذا الخطاب في أشعاره، ويمكن تتبع هذه الأسس كما يأتي :

١ . القران الكريم:

يعدّ القران الكريم من ابرز أسس الخطاب الديني التي انطلق منها الشاعر فأمدّ الشاعر بخطاباته الدينية الرنانة كونه يمثل حجة بلاغية لا تستطيع العقول البشرية أن تدرك فحواه مهما أوتيت من قوة الإدراك والفهم لذلك وقف العرب مبهورين أمام سحر بيانه وقوة أسلوبه وعجيب نظمه وان كانوا أصحاب البيان وأرباب الفصاحة والبلاغة[٣٩] وقد أفاد الشاعر من ثقافته القرآنية ووظفها خير توظيف في شعره ومن التوظيف القرآني في شعره قوله:

ولا تحـــزن علـــى مـــا فـــاتَ منهـــا إذا مـــا أنـــتَ فـــي أُخـــراكَ فُزتـــا[٤٠]

فالبيت الشعري استوحى معناه من قوله تعالى((لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)) [٤١]إذ وجّه الشاعر خطابه إلى المتلقي ليعرض من خلاله عن النهي عمّا فات الإنسان من هذه الدنيا وترك الخوض في غمارها لأنها زائلة .

وتتجلى ثقافة الشاعر القرآنية في قوله أيضا:

ثَقُلـتَ مـن الـذُّنوبِ ولسـتَ تخشـى لجهلـــكَ أن تَخِـــفَّ إذا وُزِنتـــا[٤٢]

فنجد الشاعر قد استمد خطابه من قوله تعالى ((فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)))[٤٣]

ومما لاشك فيه أنَّ الالبيري يحاول أن يكثّف في خطابه الديني من الاقتباسات القرآنية قصد التأثير في المتلقي لما لهذا الكلام من وقع على النفس، لذلك لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من الاقتباس القرآني ومن النماذج الأخرى قوله: (الوافر)

فهـــل مـــن تـــوبةٍ مِنهـــا نَصُـــوحٍ تُطيِّرُنـــي وتأْخـــذُ لـــي سَـــراحِي[٤٤]

فشاعرنا يوظف قوله تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا))[٤٥].

فيقدّم لنا من خلال خطابه القرآني أعظم صور الوعظ والاعتبار بل يعكس لنا المردود الثقافي لشاعر، يقول شاعرنا:

وعَنـــتْ لِقيُّـــومِ السَّـــماواتِ العُـــلا ربِّ الجميـــعِ، وقـــاهرِ الأمـــلاكِ[٤٦]

ففي هذا البيت نجد إشارة إلى قوله تعالى ((وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا))[٤٧].

ويأتي الاقتباس القرآني في شعر الالبيري بمواطن عدة [٤٨].

وصفوة القول إنَّ النص القرآني عندما يذكر في النص الشعري، فسوف يُشرب هذا النص نوعاً من الألفة، لما للنص القرآني من القرب من نفسية المتلقي، والنص القرآني إذا ما

وافق مراد الشاعر فسيكون في إيراده خدمة كبيرة للنص الشعري، لأنه لا يضاهيه نص آخر في الإبانة والإفصاح.

وجاء توظيف (الالبيري) للنص القرآني في ثنايا نصه الشعري بأشكال متنوعة، منها التوظيف من خلال إيراد النص أو بعض متعلقاته، والتوظيف بالمعنى، والمهم في الآمر أنَّ التعبير من خلال بعض آيات القران الكريم شكَّل حضوراً لا يمكن إغفال تأثيره في شعره على اختلاف الصيغ التي وردت بمقتضاها .

٢. السنة النبوية :

تعدّ السنة النبوية الأساس الآخر من أسس ثقافة الشاعر الدينية والتي تشكل انطلاقة الشاعر في خطابه الديني، ومما لاشك فيه أنَّ إلحاح الشاعر على توظيف السنة النبوية ودمجها بآليات الخطاب سيحقق فائدتين إحداهما: تكثيف لغة الخطاب الديني من خلال السنّة بعدّها التشريع الثاني بعد القران.

والآخر: شحن النص بدلالات معنوية الهدف منها إيصال الفكرة إلى المتلقي، فضلاً عن ذلك فإنَّ تضمين الحديث يمنح النص الشعري قوة عاطفية تؤطر الخطاب الديني بمزيد من التأثير ومن ذلك التوظيف ما نجده في قول شاعرنا:

ولـــم تُخلـــق لِتعمُرَهـــا ولكـــن لِتعبُرَهـــا فَجِـــدَّ لمـــا خُلِقتـــا[٤٩]

فقد تضمّن البيت الشعري إشارة إلى الحديث النبوي الشريف ((مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها))[٥٠].

إذ أراد الالبيري في خطابه الديني إخبار المتلقي بأنَّ الدنيا زائلة وما للإنسان الا الدار الآخرة فالوعظ والنصح والإرشاد كلها من مضامين هذا الخطاب.

وقوله كذلك في بيت آخر :

ولا تقُـــل الصَّبـــا فيـــه مجـــالٌ وفكّـــر كـــم صـــغيرٍ قـــد دفَنتـــا[٥١]

مشيراً في هذا البيت إلى قول رسول الله(صلى الله عليه وسلم): ((اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك)) [٥٢].

ونجد كذلك في قوله:

ولــو وافيــتَ ربَّــكَ دون ذنــبٍ وناقشـكَ الحسـابَ إذا هلَكتـا[٥٣]

ففي البيت إشارة إلى الحديث النبوي الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت قال (رسول الله صلى الله عليه وسلم): من حوسب يوم القيامة عذب. فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) فقال: ليس ذاك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب[٥٤].

ونجد في قول الالبيري إشارات واضحة وصريحة لبعض الأحاديث، إذ يقول:

ويَحمِلُنـي إلـى الأجـداثِ صَـحبِي إلــى ضـيقٍ هُنـاكَ أو انفِسـاحِ[٥٥]

فالبيت يستمد معناه من الحديث الشريف((القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)[٥٦].

ونجد كذلك في قوله:

وإليـــــهِ ضَـــــراعَتِي وابتِهـــــالي في مُعافاةِ شَيبتي من جهنَّمْ[٥٧]

ففي البيت إشارة إلى قول الرسول (عليه الصلاة والسلام) ((إنَّ الله يستحي أن يعذب شيبة شابت في الإسلام))[٥٨].

٣ . القيم الخلقية:

يعدّ شعر القيم الخلقية من الموضوعات الجادة التي تناولها شعراء الأندلس بشكلٍ عام والالبيري بشكلٍ خاص والتي أصبحت أساسا ومنطلقا للخطاب الديني.

وقد تمتّع العرب بقيم خلقية دلّت عليها كتاباتهم وخطاباتهم الدينية وهذه القيم استمدت كينونتها ووجودها من ((الظروف البيئية في تكوين العرف الاجتماعي السائد في

الأندلس التي أملت على الإنسان أن يتصف بالشجاعة والشهامة والفروسية والمروءة والوفاء والصبر))[٥٩].

ومن تلك القيم الخلقية التي تجسدت في خطاب الالبيري، الوفاء تلك الخصلة التي تغنى بها الشعراء والالبيري واحد من هولاء، إذ يقول :

هــو أوفَــى مــن السَّــموءَلِ عهــداً ولمـــــا زالَ مُغرمـــــاً بـــــالوفاءِ[٦٠]

فهنا يمدح القاضي ابن توبه ويضفي عليه صفة الوفاء، ويجعله أوفى من السموءل الذي ضرب به المثل بالوفاء، بل ويجعله مغرما بالوفاء.

وقد اظهر الالبيري الوفاء من خلال حفظ العهد الذي هو جزء من الوفاء، إذ يقول:

أرعَـــى أذِمَّتـــهُ وأحفـــظُ عـــهدهُ عندي فما يجري سِواهُ بخِاطِري[٦١]

أمّا الحلم فهو القيمة الأخرى التي شكّلت أسس الخطاب الديني، وكان حرياً بالشعراء أن يتغنوا بهذه الصفة في بلاد كان تسودها ظروف قاسية ونزاعات داخلية وخارجية، وكان لهذه الصفة نصيبٌ في شعر الالبيري، إذ يقول :

ولــو أنَّ الــدُّهَاةَ مــن كُــلِّ عصــرٍ خبـــروهُ دانُـــوا لـــهُ بالـــدَّهاءِ

أو رأى أحنـفٌ . أو احلـمُ منـهُ . حِلمـهُ مـا انتَمـوا إلـى الحلمـاءِ[٦٢]

فقد استطاع الالبيري من خلال البيتين أن يوظف صفة الحلم في خطابه لكي تكون قادرة على إحداث التفاعل مع المتلقي.

بل ويذهب الالبيري إلى ابعد من هذا في الجمع بين العلم والحلم ورجاحة العقل، بعدّها من أسس الخطاب الديني، إذ يقول :

وأيــن بحــارُ العلــمِ والحِلــمِ والنَّــدى وأيــن الأكُــفُّ الهامِيــاتُ السَّــواكبُ[٦٣]

إذ يتساءل الشاعر عن أصحاب هذه القيم الخلقية الذي كان لهم الباع الطويل في نشر العلم والإسلام في تلك البقاع ولكن أصبحوا اليوم في غيابات الجبّ بعد الخراب والدّمار الذي أصاب مدينتهم البيرة .

لذلك يمكن القول: إنَّ هذه القيم هي المهاد الحقيقي التي أمدّت الشاعر بأسلوب خطابي يضمن وصول الفكرة المنشودة إلى المتلقي، وفي الوقت ذاته يعكس لنا مرجعية الشاعر الثقافية التي جعلته يسلط الأضواء على هذا النوع من الخطاب .

بلاغة الخطاب الديني:

أنّ نبع البلاغة وحسن الكلام يتمثل في اجتماع الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وتحقيق بلاغة الخطاب الديني يبقى مرهوناً ((بإطار إضافي، يلزم فيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بعد توافر مواصفات الفصاحة، وهنا يتم استدعاء المتلقي ليكون شريكاً في العملية الكلامية، لأنّ مطابقة الحال لا يمكن تحققها إلا بالنظر إلى المتلقي وحالاته الإدراكية المختلفة، كما إنها . في الوقت نفسه . تستحضر المتكلم في حالةٍ خاصة، هي حالة (الوعي والقصد) لأن غيابهما يتنافى مع مراعاة الحال والمقام))[٦٤].

وكان للرافد الديني اثرٌ واضحٌ في بلاغة الخطاب الديني عند الالبيري فقد جاءت صوره معبرة عن سعة اطلاعه وثقافته الإسلامية التي وظفها لخدمة بلاغة الخطاب الديني، فقد تأثر بالقران الكريم وصوره واستمد بعض إبداعاته من أحاديث الرسول (ﷺ) ومن المعاني الإسلامية، وذلك من خلال تصويره القيم والمثل الخلقية التي اشرنا إليها سابقا، ومن بلاغة خطاب الالبيري قوله:

أَرى الأعصار تعصرُ ماء عودي ... وقِدماً كنتُ ريَّان القضيبِ
وبدلتُ التثاقل من نشاطي ... ومن حسن النّضَارةِ بالشحوبِ
كَذاكَ الشّمس يعلوها اصفرارٌ ... إذا جنحت ومالت للغروبِ
تُحارِبُنا جُنودٌ لا تُجارى ... ولا تُلقى بآسادِ الحُروبِ[٦٥]

فقد رسم لنا الشاعر من خلال هذه الأبيات صورة معبّرة عن اقتراب المنية، وعن تأثير الشيخوخة والهرم،وقد تضمن البيت الأول بين ثناياه استعارة لتمهد انطلاقة النص الشعري إلى فضاء التشبيه، وأُستبدل من ريعان الشباب والجمال بالشحوب والضعف في البيت الثاني، ثم ينتقل من هذه الصور الجزئية إلى صورة كليّة هي إنَّ الإنسان يصيبه الاصفرار والشحوب بعد أن يأفل شبابه وكذلك الشمس تصفرُّ عند ميلها للغروب، ثم يشبه هذه المنية بالجنود التي لا يمكن الصدام معها، ولا يمكن ملاقاتها حتى ولو بأسود الحرب؛ لأنّ القدر وقع والأجل قد

حان، وهذا النوع من التشبيهات يعرف بالتشبيه التمثيلي، كون وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدد وليس من واحد.

فالسياق الكلي لهذه الأبيات هو سياق وعظ وإرشاد، تكشف عنه تلك الألفاظ والتشبيهات التي استمدها الشاعر من تجربته الخاصة في الحياة، فهو زاهدٌ واعظٌ أكثر من قول الزهد والوعظ في أشعاره، بل في جميع ديوانه نجد صدى تلك الحياة الزهدية، فكان هناك نسق واحد في اختيار ألفاظ الوعظ والإرشاد ليشكل منها بنيات تشبيهيه أثّرت في السياق الداخلي، إذ جاء نظمها لتناسب سياق الحال، فاكتسب النصّ بشكلٍ عام والصورة التشبيهية بشكل خاص حسناً وجمالاً.

يقول أبو إسحاق الالبيري:

وكَم طَلَعتْ مِنها الشُّموسُ وكم مَشتْ عَلى الأرض أَقمارٌ بِها وكواكِبُ
وكَم فَرسَتْ فيها الظِّباءُ ضَراغِماً وكم صَرَعَتْ فيها الكُمَاةَ كواعِبُ[٦٦]

فالسياق العام للبيتين يمثل مجموعة من الاستعارات عن(كورة إلبيرة) التي أراد الشاعر أن يقول فيها إنها كانت موطن السعد والنعمة فكان فيها الجمال الذي استعار له الشموس والأقمار والظباء . الحسناوات من الصبايا . اللائي يفترسن الضراغم أي الأبطال من الرجال، وكم فيها من الكواعب اللائي نهدت صدورهن فكن سبباً في صرع الأبطال المستعدين بأسلحتهم لمصارعة خصومهم من الأقران، وهذا كله قبل الخراب الذي أصابها.

يقول أبو إسحاق الالبيري:

تَفتُّ فُؤادَكَ الأيام فتًّا وتَنحِتُ جِسْمَكَ السَّاعاتُ نَحْتا
وتَدعُوكَ المنُونُ دُعاءَ صِدقٍ أَلا يا صاحِ: أَنتَ أُريدُ، أَنتا [٦٧]

إذ استعار الشاعر للزمن (الأيام والساعات)، التفتيت والنحتَ وكلاهما من الأعمال التي يمارسها الإنسان، الذي يمثل في هذه الصورة المستعار منه(الإنسان)، وقد حذف منه وأبقيت القرائن الملفوظة التي نستشفها من خلال سياق الأبيات والمتمثلة بـ(التفتيت

والنحت)، أمّا الدلالة الجامعة بين المستعار (الزمن) والمستعار منه (الإنسان) فهي الانتهاء والانقضاء الذي لابد منه.

وفي البيت الثاني نجد أيضاً أنَّ الشاعر قد استعار(المنية) بدعوى الإرشاد والتوجيه والوعظ والتذكير بدنو الأجل واقتراب الموت، من المستعار منه (الإنسان) وحذف المستعار منه وأبقيت إحدى لوازمه وهي (النداء) فالمنون لا تنادي، وإنّما من ينادي هو الإنسان.

هاتان الاستعارتان المكنيتان لهما أثرٌ كبير في الكشف عن واقع الشاعر كونهما تمثلان انعكاساً لتلك الحياة القائمة على الزهد والورع، فجاءت الصورتان على أروع ما يكون من التناسب بينهما وبين واقع الشاعر.

وتعدُّ الاستعارة في ضوء سياق الحال مظهراً راقياً من مظاهر الفعالية الخلاقة للغة، فهي ليست مظهراً من مظاهر الزينة أو الصنعة، بل هي جزء أساسي من العملية الشعرية، ووسيلة ضرورية من وسائل التشكيل الجمالي في العمل الأدبي.

ويقول الشاعر في موضع آخر:

وخَفْ أبناء جنسكَ واخشَ مِنُهم كما تخشَى الضَّراغمَ والسَّبنتى
وخالِطُهم وزايِلهُم حذاراً وكن كالسّامريّ إذا لَمستا
وإن جَهِلُوا عليكَ فقُل سَلاماً لعلَّك سوفَ تَسلمُ إن فعَلتا
ومَن لكَ بالسّلامةِ في زمانٍ ينالُ العُصمَ إلا إن عُصِمتا
ولا تَلبث بحيٍّ فيهِ ضَيمٌ يُميتُ القَلبَ إلا إن كُبِلتا
وغَرِّب فالغَريبُ لُه نفاقٌ وشرِّق إن بِريقكَ قد شَرِقتا[٦٨]

تمثل بنية الأمر في هذا النص بؤرة الارتكاز التي تدور حولها أفكار الشاعر، فحاول أنْ يؤطر تلك الأفكار المرتبطة بغرضه الزهدي عبر البنى التركيبية المتمثلة بالأمر فجاءت سلسلة من الأوامر التي خرجت جميعها لغرض النصح والإرشاد، فكانت أداة فاعلة من حيث إيصال الفكرة المنشودة إلى المتلقي، فضلا عن ذلك فإن تراكم أفعال الأمر قد شكّل ملمحاً

أسلوبياً بارزاً في هذا النصّ فنجد (خف، واخش، وخالط، وزايل، وكن، وقل، و غرب، وشرق) ويكمن القصد من إشاعة هذا الحشد الدلالي لأفعال الأمر إلى إشاعة جوٍّ من التناسب بين صيغة الأمر وسياق التجربة الشعرية التي نُظم من أجلها النص.

وكان ظهور هذا الحسّ الديني لدى الشاعر الأندلسي ثورةً وردَّةَ فعلٍ على الظروف التي كانت سائدة بالمجتمع الأندلسي آنذاك، ومن الطبيعي أنْ يكون التديّن والعناية بشعائر الدين وأصوله والتمسك بثوابته أمراً طبيعياً، لأسباب معروفة منها انشغال البلاد بالحروب، واتقاد روح الجهاد والمرابطة من جهة، ومن جهة أخرى كان لمجاورة المسلمين مع النصارى ومعايشتهم إياهم أثر بالغ في تفوق الحس الديني[٦٩].

فجاءت ألفاظ الشاعر مستنبطة من هذا الواقع، علّها تخفف عنه رهبة هذا الزمن القاسي، وتترك أثارها في المجتمع الأندلسي من أجل الحفاظ على هذا الدين، وقد رأيت من خلال دراستي لهذه الحقبة أنَّ أجمل من نظم هو أبو إسحاق الألبيري، واستمع لقوله:

كـأنّي بِنَفسـي وهـي فـي السَّـكراتِ ... تُعالِـجُ أن تَرقـى إلـى اللَّـهَواتِ
وقـد زُمَّ رحْلـي واسـتَقلَّتْ ركائبـي ... وقـد آذَنتنـي بالـرَّحيلِ حُـداتي
إلـى مَنـزلٍ فيـه عـذابٌ ورَحمـةٌ ... وكـم فيـهِ مـن زجـرٍ لنـا وَعِـظاتِ
ومـن أعـينٍ سـالت علـى وجَنَاتهـا ... ومـن أوجُـهٍ فـي التُّـربِ مُنعَفـراتِ
ومِـن ملِـكٍ كـان السُّـرورُ مِهـادهُ ... مـع الآنسـاتِ الخُـرَّدِ الخَفِـراتِ
غـداً لا يـذُودُ الـذُّود عـن حُـرِّ وجهـه ... وكـان يـذودُ الأُسـدَ فـي الأجَمـاتِ
وصـار بـبطنِ الأرضِ يَلتحـفُ الثَّـرى ... وكـان يجـرُّ الوشـيَ والحَبـراتِ[٧٠]

فما يعنينا في هذا النص الشعري هو معجم الشاعر اللغوي وكيف تلاءمت دوالّه ومدلولاته وانتظمت في سياق واحد، والكلمة المفتاح في هذا النص هي (الموت) التي انبثقت دلالتها من جملة كلمات أراد الشاعر من خلالها أنْ يندب نفسه أولاً ويذكرها المعاد ثانياً وأنْ تكون رسالة موجهة إلى المجتمع الأندلسي ثالثاً، فنجد (السكرات، اللهوات، الرحال، الرحيل، عذاب، رحمة، زجر، عظات، التراب، الدود، الالتحاف الثرى) كلّها ألفاظ توحي بعمق الدلالة

الدينية في نفس الشاعر والحرص على التذكير بأنَّ الدنيا زائلة وأنَّ الآخرة هي دار القرار، وجاء دور الشاعر المبدع في نظم هذه الألفاظ وتسلسلها على وفق ترتيب الحدث فبدأ بسكرة الموت والرحيل عن الدنيا إلى منزل الآخرة إنّها حياة البرزخ، إمّا عذاب وإمّا رحمة. ويستشهد بالملك المنعَّم في الحياة الدنيا ليضعه أمام تلك الحياة لعلّه يتَّعظ وتتعظ الرعية من بعده .

إنّه ينهض من تلك الألفاظ والمعاني إلى خطاب شعري، يتداخل فيه الموت وجراح تلك الأمة التي أصبحت تقطر دماً جراء حكامها الذين طغوا وافسدوا معالم تلك الحضارة العريقة،

ومما يسهم في بلاغة الخطاب هو حسن الابتداء، إذ يعد حسن الابتداء المفتاح الذي يدخل الشاعر بوساطته إلى عالمه الشعري، ذلك العالم الذي يستمد وجوده من الواقع، ليرسم صوراً مختلفة تعبر عنه ويضفي عليه من تجربته الواقعية وانفعالاته العاطفية وثقافته الاجتماعية ليشكل نسيجاً شعرياً متكاملاً.

يقول أبو إسحاق الألبيري رحمه الله في خراب إلبيرة:

يُضيّعُ مفروضٌ ويُغفَلُ واجِبُ ... وإنّي على أهلِ الزَّمانِ لَعاتِبُ

أتندُبُ أطلالُ البلادِ ولا يُرَى ... لإلبيرةٍ مِنُهم على الأرض نادِبُ

على أنَّها شمسُ البلادِ وأُنسُها ... وكلُّ سِواها وَحشةٌ وغَياهِبُ

وكم من مُجيبٍ كانَ فيها لصارخٍ ... تُجابُ إلى جَدوى يديهِ السَّباسبُ

وكم من نجيب أنجبتهُ وَعالِمٍ ... بأَبوابِهِم كانت تُناخُ الرَّكائبُ [٧١]

فالشاعر وصل إلى غاية المنى من البيت الأول دون مناورة أو خروجٍ عن الموضوع، فشكوى الزمان وانتقاد من يندب الأطلال دون ندب أرض البيرة، فكانت بداية تليق بالمقام، انبثقت من هوى نفس حزينة تصرخ على تلك الديار، وكان لاختيار الألفاظ الجزلة أثر كبير في استثارة عواطف المتلقي وفي الوقت ذاته تنم عن مرجعية ثقافية دينية أثرت السياق بمزيد من الدلالة وجُد صداها في النص الشعري كاملا.

الهوامش والمراجع

القران الكريم.

(١)– الأسلوبية والأسلوب : عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط٣ : ١١٤ .

(٢)الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، د. منجد مصطفى بهجت، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ٣٢٠ .

(٣) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس،د. محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، بيروت . لبنان، ط ٢، ١٩٨٥م. ٣٠٨.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة،لأبن الخطيب(٧٧٦هـ)، شرحه وضبطه وقدم له د. يوسف الطويل، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،٢٠٠٣م، ١٣/١ .

(٥) المصدر نفسه، ١ / ١٤.

(٦) ديوان أبي إسحاق الالبيري الأندلسي، حققه وقدم له، د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٧٦،٧٣.

(٧) المصدر نفسه : ٧٣.

(٨) المصدر نفسه :٧٤ .

(٩) المصدر نفسه : ٧٥. ٧٦.

(١٠)البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان كولدمان : ٦٤.

(١١)سورة النساء: ٥٩.

(١٢)صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ، باب الجهاد من الإيمان، رقم ٣٦.

(١٣)الإسلام في ارض الأندلس،احمد مختار العبادي، مجلة عالم الفكر، الكويت،م ١٠، ع ٢، ١٩٧٩، ٣٧٣.

(١٤) ينظر: البيان المغرب، لأبن عذاري المراكشي، تحقيق ليفي بروفنسال،دار الثقافة، بيروت، ٣/ ١٢٩. ٢٦٤ .

(١٥)ينظر : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عبد الله عنان،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠، ١٤٠.

(١٦)ديوان الالبيري، ٩٦.

(١٧) المصدر نفسه : ٩٧.

(١٨) المصدر نفسه : ٩٨.

(١٩) المصدر نفسه : ٩٩.

(٢٠) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ابي الحسن علي بن بسام الشنتريني(٥٤٢)، تحقيق: د.احسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، ق١ مج ٢، ٧٦٩.

(٢١)ديوان الالبيري، ٣١.

(٢٢) المصدر نفسه، ٤٣.

(٢٣)المصدر نفسه:٥٠.

(٢٤)المصدر نفسه، ٥٠. ٥١.

(٢٥)المصدر نفسه، ٦٢.

(٢٦)ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ٢٦٦.٢٦٧.

(٢٧)ديوان الالبيري : ٢٦.

(٢٨)المصدر نفسه، ٣١.

(٢٩)المصدر نفسه، ٤٣.

(٣٠)المصدر نفسه، ٤٧.

(٣١)المصدر نفسه،٥٠.

(٣٢) المصدر نفسه، ٦٤.

(٣٣)المصدر نفسه، ٩٤.

(٣٤) المصدر نفسه،٥٢.

(٣٥) المصدر نفسه، ٢٧.

(٣٦)المصدر نفسه ٥٣.

(٣٧)المصدر نفسه٥٦.

(٣٨) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين،٩٥

(٣٩)مناهج بلاغية، د. احمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م، ٣٩

(٤٠)ديوان الالبيري، ٢٤.

(٤١) سورة الحديد،٢٣.

(٤٢) ديوان الالبيري،٢٦

(٤٣)سورة القارعة، ٦، ٧، ٨، ٩ .

(٤٤)ديوان الالبيري، ٤٤.

(٤٥)سورة التحريم، ٨ .

(٤٦)ديوان الالبيري، ٣٦.

(٤٧)سورة طه ١١١.

(٤٨) المصدر نفسه، ٤٠، ٤٢، ٥٦، ٦٨ .

(٤٩)ديوان الالبيري، ٢٤.

(٥٠)سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك(ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: ابراهيم عطوة عوض المدرس، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر، ط ٢،رقم الحديث ٢٣٧٧، ١٩٧٥م.

(٥١) ديوان الالبيري، ٢٥.

(٥٢)كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على الألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي(١١٦٢هـ)، تحقيق عبد الحميد بن احمد بن يوسف بن هنداوي، المكتبة العصرية،ط ١، ٢٠٠٠م : ١/ ٩٤.

(٥٣) ديوان الالبيري، ٢٧.

(٥٤) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج ابو الحسن القشيري النيسابوري،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي . بيروت، ٤/ ٢٢٠٤.

(٥٥) ديوان الالبيري: ٤٤.

(٥٦)كشف الخفاء، ٢/ ١٠٦ .

(٥٧) ديوان الالبيري، ٥١ .

(٥٨)كشف الخفاء ١/ ٢٧٧.

(٥٩) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق، محمد سعيد العريان، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، ١٩٦٣م. ٣٩.

(٦٠) ديوان الالبيري، ٨٨.

(٦١) المصدر نفسه، ٧٧.

(٦٢) المصدر نفسه، ٨٨ .

(٦٣) المصدر نفسه،٧٥.

(٦٤) البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان . ط١،١٩٩٧، ٧٠ .

(٦٥) ديوان الالبيري : ٣١.

(٦٦)المصدر نفسه : ٧٤.

(٦٧) المصدر نفسه، ١٩ .

(٦٨)المصدر نفسه : ٢٩.

(٦٩) ينظر تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د. محمد رضوان الداية، دار الأنوار بيروت، ١٩٦٨ م، ٢٢.

(٧٠) ديوان الالبيري: ٥٢ . ٥٣.

(٧١) المصدر نفسه: ٧٣.